المنهجُ التَداوُلِيُّ فِي النَّقدِ الأَدَبِيِّ
دِرَاسةٌ فِي الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

إعداد

د/ كريم مُحمّد مُحمّد صِدّيق

دكتوراه في الدراسات الأدبية والنقدية

كلية الآداب جامعة الإسكندرية

المنهج التداولي في النقد الأدبي دراسة في الحديث النبوي الشريف

كريم محمد محمد صديق

قسم الدراسات الأدبية والنقدية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية، مصر.

البريد الالكتروني: dockarimseddik@gmail.com

الملخص:

دراسة السياق وقراءة المقام أحد صور نقد النصوص، وهذا ما تحاول التداولية أن تثبته ولقد نشأ هذا المنهج في الغرب ولكنه كان مبثوثا في تراثنا البلاغي، شأنه في ذلك شأن كل المناهج النقدية، فأشرت في هذا البحث إشارة إلى هذا، ثم دلفت إلى دراسة تطبيقية على الحديث النبوي محاولا قراءة النص من خلال نافذة المنهج التداولي، فليست العناية بالألفاظ وحدها هي من تقوم باستجلاء الموقف في كل مرة، بل تتضافر المقومات التي بنيت عليها المناهج النقدية المختلفة لتبرز جماليات النصوص وانتظمت دراستي التطبيقية حول عدة موضوعات هي حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المشركين من أهل الكتاب وإلى الوثنيين من عبدة الأصنام وكيف كان الحديث مختلفا، وحديثه صلى الله عليه وسلم إلى الأطفال وكيف كان يعاملهم ويسدي لهم النصح، وحديثه صلى الله عليه وسلم لزوجاته وعنهن، والمنبر وكيف كان عاملا أساسيا في خطابه لأصحابه وفي تبليغ دعوته، فهذه أربعة أمور دار حولها البحث. وعرضت لبعض النصوص النبوية وظهر منها كيف كان السياق حاديًا للكشف عن حقيقتها، رأينا ذلك في حديث النبي إلى غير المسلمين، وحديثه مع الأطفال، وحديثه إلى أزواجه، والمنبر وكيف ربط النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عظائم الأمور. إن العناية بالسياق في دراسة النصوص ذات أثر بالغ في فهم حقيقة تلك النصوص وسبر أغوارها، ولقد كان هذا معلومًا في تراثنا العربي قديما، لذا نرى كيف استعملت النصوص النبوية التي بين أيدينا في فهم نصوص أخرى في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: التداولية، حال المتكلم، المقام، مقتضى الحال.

The Pragmatic Approach in Literary Criticism: A Study of Hadith Narratives

Karim Mohammed Mohammed Seddik
Department of Literary and Critical Studies, Faculty of Arts, Alexandria University, Alexandria, Egypt
E-mail: dockarimseddik@gmail.com

Abstract:
Studying context and analyzing situational discourse are essential aspects of textual criticism, a principle that pragmatics seeks to establish. Although this methodology originated in the West, it has long been embedded within our classical rhetorical heritage. This study highlights this connection before conducting a pragmatic analysis of Hadith texts, demonstrating that meaning is not solely derived from words but rather from the interplay of various critical elements that reveal textual aesthetics.
Study Focus: The applied analysis centers on four key themes in the Prophet Muhammad's (PBUH) speech: 1-His discourse with polytheists and the People of the Book, examining variations in approach.2-His speech to children, showcasing his method of instruction and guidance.3-His interactions with his wives and how he spoke about them.4-The role of the minbar (pulpit) in his sermons and its impact on delivering messages to his companions. I have presented some prophetic texts, and it became clear from them how the context was crucial in revealing their truth. We saw this in the Prophet's speech to non-Muslims, his speech to children, his speech to his wives, and the pulpit, and how the Prophet (peace and blessings be upon him) connected it to important matters. Paying attention to context when studying texts has a profound impact on understanding their true meanings. This was well-known in our ancient Arab heritage, and so we see how the prophetic texts we have were used to understand other texts in the Holy Quran.

Keywords: Pragmatics, Speaker's State, Context, Situational Appropriateness.

المقدمة

الحمد لله وكفى، وأُصلي وأسلم على عباده الذين اصطفى، لاسيّما عبده المصطفى، وآله وأصحابه المستكملين الشرفَ، أما بعد ، فإن اللغة ظاهرة اجتماعية شديدة الصلة بالثقافة الموجودة عند مستعمليها، وهذه الثقافة التي يمكن رصدها وتحليلها بحصر المواقف الاجتماعية المختلفة والتي تسمى السياقات المقامية، وفكرة المقام هذه هي المحور الأساسي الذي يبنى عليه الوجه أو الشقّ الاجتماعي للغة، وهو الشقّ الذي تظهر فيه العلاقات والظروف والأحداث التي تسيطر وتسود ساعة أداء المقال .

من هذا المنطلق يعتبر السياق أحد الأعمدة والمحاور الأساسية التي أفضى الحوار بصددها إلى إنعاش الدراسات اللغوية التي تمخضت فأنجبت درس التداوليات، والذي لا يمكن اعتباره إلا دراسة للكلام باعتبار السياق(١)، ولذلك فللسياق أهمية كبيرة وضرورة لا غنى عنها لمحلل الخطاب، خصوصًا حينما يتعلق الأمر بالبحث عن المعنى والدلالة .

وبهذا فالسياق يمثل حجر الأساس من بين الخصائص التي ينبني عليها أي استعمال لغوي لأية لغة طبيعية، ذلك أنه يوجد على الأقل في كل موقف من المواقف التواصلية شخصان أحدهما هو الفاعل الحقيقي، والآخر هو الفاعل على جهة الإمكان، أي المتكلم والمخاطب على التوالي، وكلاهما ينتسبان إلى جماعة لسانية لها نفس اللغة، وتترابط بينها أنماط الاتفاق والتواطؤ للقيام بالفعل المشترك (الإنجاز) داخل السياق المقامي المحدد(٢).

---

(١) ينظر د محمد محمد يونس علي – وصف اللغة العربية دلاليًا – الناشر جامعة الفاتح – ليبيا – ط١ ١٩٩٣– ص١١٧ .

(٢) ينظر صلاح فضل – بلاغة الخطاب وعلم النص – المجلس الوطني للثقافة – الكويت١٩٩٢م– ص٢٥، وانظر جميل عبد المجيد – البلاغة والاتصال – دار غريب – القاهرة – ٢٠٠٢م – ص٨ .

والرؤية التداولية هي تلك الرؤية التي تقوم بالبحث في العلاقة التفاعلية بين النص وبين منتجه من جهة، وبينه وبين متلقيه من جهة أخرى، مع الحفاظ على مختلف العناصر المقامية المؤثرة في هذه العلاقات .

وتعتمد النظرية التداولية للنص على مفهوم مقام الخطاب، ولهذا كانت البلاغة العربية تختار كنقطة انطلاق لها هنا مقام الخطاب، حيث كان الخطيب يقف في موقف مخصص له، ويحرص على كسب انتباه المستمعين مراعيا بذلك أقدارهم وحالاتهم حسب تعبير الجاحظ، وهذا ما نلمسه بدقة في صحيفة بِشر بن المُعتمِر، التي تعد منطلقا أساسيا للتفكير البلاغي المراعي لمختلف العناصر التداولية في عملية التواصل(١).

وقد نجحت النظرية التداولية في أن تعيد النظر في مجموعة من القضايا التي كان يعتمد عليها البحث اللساني، أرادت تجاوز القدرة على الإنجاز، أي تجاوز البنية الصورية إلى الكلام في كل حيويته وعَفويته، وإلى المتكلم بكل ما له من اعتقادات ونوايا ، وإلى المخاطَب بكل ما له من فهم وقدرة على التأويل(٢).

وقد عنيت الدراسات قبل التداولية بالتركيز على محورين أساسيين:

- **المحور النحوي:** ويهتم بدراسة التراكيب، أي دراسة وضع الكلمة في الجملة، والجملة في مقاطع الجمل، من أجل إيجاد قواعد تحدد هذه التعبيرات المختلفة.

(١) ينظر الجاحظ – البيان والتبيين – مكتبة الهلال – بيروت – لبنان ط١ –١٤٢٣هـ – ج١ ص١٦٢ .

(٢) ينظر إبراهيم خليل – في اللسانيات ونحو النص – دار المسيرة –عمان – الأردن – ط٣ ٢٠١٥م – ص٢١٥ .

- **المحور الدلالي:** ويهتم بمعالجة علاقة الكلمات بالأشياء وأحوالها، أي الاهتمام بدراسة المعنى والمرجع[1]. ولما كان هذان المحوران لم يستنفدا قضايا المعنى، ولا مشاكل الحقيقة، فإن التداولية تتدخل لدراسة علاقة العلامات بمستعملي هذه العلامات، والجمل بالمتكلمين. وبإيجاز نجد أن النحو يدرس الجمل، وأن الدلالة تدرس المعنى الظاهر، أما بالنسبة للتداولية فهي دراسة الأفعال اللسانية والسياقات التي تتم فيها .

إن المنهج التداولي هو الدرسُ التطبيقيُّ الحيُّ لمفهوم البلاغة العربية والتي عرفت قديما بـ "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[2]. والحال بهذا المفهوم تشمل أمورًا، منها[3]:

١- أحوال المخاطَب :

فذكاء المخاطب أو غباؤه ، وتردده أو إنكاره ، وطبقته الاجتماعية ، وطبيعة ثقافته ، وميوله وآراؤه المذهبية ، وعلاقته بالمتكلم أو بموضوع الكلام ، وما إلى ذلك – كلها أحوال أو مقامات يتنوع الكلام بتنوعها .

٢- طبيعة المعنى أو الغرض :

فلكل غرض من الأغراض ما يلائمه من صور وما يليق به من أشكال تعبيرية لا تليق بسواه .

---

(١) ينظر المرجع السابق – ص٢١٥ .

(٢) ينظر القزويني – الإيضاح في علوم البلاغة – دار الجيل – بيروت – ط٣ – (١٢ – ١٥ – ٢١٥) .

(٣) ينظر د / حسن طبل – علم المعاني في الموروث البلاغي – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة – ص (١٣ – ١٤ – ١٥) – بدون تاريخ .

٣- مجموعة الاعتبارات الخارجية الداعية إلى الكلام أو المصاحبة له :

من ذلك – مثلا – المناسبة التي قيلت فيها القصيدة ، وسبب نزول الآية الكريمة ، والبيئة الزمانية والمكانية للنص ، وما إلى ذلك من اعتبارات لا يمكن إغفال أثرها في الكلام عند فهمه وتذوقه .

٤- أحوال المتكلم :

وهو محور هذه الدراسة – بحول الله وقوته – والواقع أن " حال المتكلم " هي المرد الأول والجوهري للمطابقة ، فالأحوال الثلاثة السابقة هي بمنزلة الواقع الخارجي للتجربة ، ذلك الواقع الذي لا يكون العمل الفني رصدا آليا مباشرًا له ، بل تصويرا فنيا لرؤية المبدع له ، وانفعاله الخاص به، وموقفه المتفرد منه .

مقامات المتكلمين[١]**:**

هناك المتكلم الذي يخاطب نفسه وهذه المخاطبة تستلزم التجريد ، فلا يخاطب نفسه حتى يجعلها أمامه؛ ليخاطبها ، ولا يجعلها أمامه حتى يجرد من نفسه مخاطبا آخر ؛ ليتمكن من خطابه[٢]. ودوافع ذلك كثيرة منها تسلية النفس والترنم بما يقول؛ إرضاءً لنفسه، أو تخفيفًا عنها، أو تسويغًا لتصرف أو حثًا على فعل .

(١) ينظر د محمد بدري عبد الجليل – تصور المقام في البلاغة العربية – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ٢٠٠٣ – ص١٨ .

(٢) ينظر ابن الأثير – المثل السائر – المكتبة العصرية – بيروت – ط١ – ١٤٢٠هـ – ج٢ ص١٦٢ / القزويني – الإيضاح في علوم البلاغة – (٥١٢ – ٥١٣ – ٥١٤) .

ومن ذلك قول المتنبي في بيان حالته :

لا خيلَ عندَك تُهديها ولا مالَ فليسعدِ النطقُ إن لم يسعدِ الحالُ[١]

وهناك المتكلم الذي يعاتب نفسه ، ومنه قول سَلَمة الجعفي :

أقولُ لنفسي في الخلاءِ ألومُها لكِ الويلُ ما هذا التجلدُ والصبرُ[٢]

وهناك المتكلم الذي هجا نفسه ؛ لأنه في مجلس الخليفة ، وقد ألجأه المقام لذلك ، فقد دخل أبو دلامة على المهدي ، فقال له المهدي : أنا أعطي الله عهدًا لئن لم تهج واحدًا ممن في البيت لأقطعن لسانك ، قال أبو دلامة : فعلمت أني قد وقعت، وأنها عزمة من عزماته لا بد منها ، فلم أر أحدا أحق بالهجاء مني ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي، فقال:

ألا أبلِغ إليكَ أبا دلامــةَ فليسَ من الكرامِ ولا كرامةُ

جمعتَ دمامةً وجمعتَ لؤمًا كذاك اللؤمُ تتبعه الدمامــةُ

فإن تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنتِ القيامــةُ

فضحك القوم ولم يبقَ منهم أحدٌ إلا أجازه[٣].

وهناك المتكلم الذي رثا نفسه ؛ وذلك ما كان من قطري بن الفجاءة إذ يقول :

أقولُ لها وقد طارت شعاعًا من الأبطالِ ويحك لن تُراعي

فإنك لو سألتِ بقاءَ يوم على الأجلِ الذي لكِ لم تطاعي

فصبرًا في مجالِ الموتِ صبرًا فما نيلُ الخلودِ بمستطاعِ[٤].

---

(١) ابن الأثير – المثل السائر – ج٢ ص١٦٥ .

(٢) ابن أبي الإصبع المصري – تحرير التحبير – ص١٦٧ .

(٣) أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – دار صادر – بيروت – ت إحسان عباس – ج١٠ ص٢٥٨ .

(٤) أبو تمام – ديوان الحماسة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان –ط١ – ج١ ص٩٦ – ٩٧ .

وهو حض وحث وإلهاب وتهييج ، وعدم التصريح بما لا يجمل أن يصف به من أرادهم؛ حتى لا ينال من عزيمتهم، أو يفت في عضدهم، ومن ذلك ما يقول متمثلهم : " إياكِ أعني واسمعي يا جارة "[١] .

ومنه المتكلم الذي يتمثل بقول غيره، وذلك ما كان من الرياشي إذ قال: ما اعتراني هم فأنشدت قول أبي العتاهية :

هِـــي الأيامُ والغيرُ وأمـــرُ اللهِ يُنتظرُ

أتيأسُ أن ترى فرجًا فأين الربُّ والقــدرُ

إلا سُرّي عني وتنسمتُ ريح الفرج[٢].

وثَمَّ المتكلم الذي استغلق عليه الكلام ، أو أُرْتِجَ عليه ، ومثل ذلك ما يروى عن عثمان ﷺ أنه صعد على المنبر فقال: الحمد لله ، وارتج عليه القول فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال، وستأتيكم الخطب[٣].

وثمّ المتكلم الذي قد يضيق مقامه ويصعب عليه القول، ومنه ما كان عند موت معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، واجتماع الناس بباب يزيد فلم يقدروا على الجمع بين التهنئة والتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام فقال : يا أمير المؤمنين ، أجزل الله أجرك على الرزية ، وبارك لك في العطية ، وأعانك على الرعية ، فقد رزئت عظيما ، وأعطيت جسيمًا ، فقدت خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، وأعطيت جزيلا ، وقال :

لا رزءَ أعظمُ في الأقوامِ قد علموا مما رزئتَ ولا عقبى كعقباكا

---

(١) ابن عبد ربه – العقد الفريد – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٤هـ – ج٣ ص٨٦ .

(٢) ابن عبد ربه – العقد الفريد – ج٨ ص٤٨ .

(٣) الجاحظ – البيان والتبيين – ج١ ص٢٧٩ .

وفي معاويةَ الباقي لنا خلفٌ إذا نعيتَ ولا نسمعُ بمنعاكا

ففتح للناس باب الرثاء وجروا على منواله[1].

وانطلاقا من هذا المنحى فقد دار البحث حول ثلاثة محاور، الأول هو بيان الصلة الوثيقة بين الدرس التداولي بمفهومه الحديث وبين تراثنا البلاغي، وكان هذا المحور مقدمة البحث ، والثاني عمدت فيه إلى تعريف التداولية لغة واصطلاحًا وبيان ماهيتها كما رآها علماء الغرب، وكان هذا في الفصل الأول من هذا البحث ، والثالث – وكان المحور الأهم – حين عمدت إلى كتاب من كتب الحديث النبوي هو كتاب جامع الأصول في أحاديث الرسول هذا السفر المبارك الذي صنفه مجد الدين أبو السعادات المبارك محمد بن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) محاولا من خلاله تطبيق الدرس التداولي على الأحوال المختلفة للمتكلم في الحديث النبوي ، وخرج هذا المحور في أربعة مطالب ، الأول حديثه ﷺ إلى الكفار ، والثاني حديثه ﷺ إلى الأطفال ، والثالث حديثه إلى زوجاته وعنهن ، والرابع المنبر وكيف استدعى رسول الله حضوره في مهمات الأمور وكان هذا هو الفصل الثاني من هذا البحث .

أهمية الموضوع :

١- إبراز جهود المنهج التداوليّ في عنايته بالسياق لفهم النصوص .

٢- (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) هي الفكرة الجوهرية التي كان لها أثرها في توجيه البحث البلاغي .

٣- إبراز دور الدراسات القديمة في عنايتها بحال المتكلم .

٤- ما تتمتع به الأحاديث النبوية من بلوغها المنتهى في باب الفصاحة والبيان.

(١) المصدر السابق – ج١ ص٢٥٦ .

٥ – دراسة أحوال مختلفة للنبي ﷺ في أحاديثه لما لها من أبلغ الأثر في فهم النصوص النبوية .

أسباب اختيار هذا الموضوع :

إذا كانت (حال المتكلم) هي المرد الأول والجوهري لمطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو مع أهميته، فإن النقاد والبلاغيين قد أغفلوا جانب المتكلم وأحواله عند رصد مطابقة الكلام البليغ لمقتضى الحال ، وركزوا تركيزا لافتًا على أحوال المخاطَب ، كان من المناسب أن نفرد (حال المتكلم) بالبحث في هذا البحث، وبيان موقعه، وأهميته في الدرس البلاغي عامة، مع الإفادة من جهود علماء التداولية في هذا المضمار .

الدراسات السابقة :

من الدراسات السابقة لـ (حال المتكلم)

١– رسالة ماجستير بعنوان (حال المتكلم في البلاغة والنقد) جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، كلية اللغة العربية ، عام ١٤٣٥هـ ، قام فيها الباحث/ حمود بن إبراهيم بن عبد الله العصيلي باقتفاء أثر البلاغيين والنقاد في حديثهم عن حال المتكلم قديما .

٢– رسالة دكتوراه بعنوان (سمات التداول وفاعلية التأثير في الحديث النبوي الشريف) للباحثة نوال بومعزة – جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة – الجزائر .

المنهج المتبع في هذا البحث:

المنهج الذي ارتأيته مناسبًا لهذا الموضوع هو المنهج التحليلي؛ حيث إن البحث سيتطلب قراءة النصوص وتحليلها للوقوف على حال المتكلم، وقد حاولت جاهدًا سبر أغوارها؛ عسى أن أوفق لاستكناه حال المتكلم من بين ثناياها ، سواء ما كان منها نصوصًا حديثية أو نصوصا حاولت جمع شتاتها من كتب البلاغيين القدماء رأيت فيها شيئًا من العناية بحال المتكلم .

خطة البحث:

قد تكون هذا البحث من مقدمة وفصلين وخاتمة وثبت المصادر والمراجع :

أما المقدمة فقد اشتملت على : أهمية الموضوع ، أسباب اختيار هذا الموضوع ، الدراسات السابقة ، المنهج المتبع في هذا البحث، خطة البحث.

الفصل الأول : مدخل في تعريف التداولية

تعريف التداولية لغةً ، تعريف التداولية اصطلاحًا .

الفصل الثاني : حال المتكلم في الحديث النبويّ

المطلب الأول: حال النبي ﷺ عند الحديث مع أهل الكتاب

المطلب الثاني: حاله ﷺ في الحديث مع الأطفال

المطلب الثالث: حاله ﷺ في الحديث مع أزواجه

المطلب الرابع: حاله ﷺ في وقوفه على المنبر

ثم خاتمة البحث، وثبتا للمصادر والمراجع.

الفصل الأول

مدخل في تعريف التداولية[١]

تعريف التداولية لغةً :

التداولية لغة مادة دول ، قال ابن منظور " و الدُّولة هي اسْمُ الشَّيْءِ الَّذِي يُتداول، والدَّوْلةُ الْفِعْلُ وَالِانْتِقَالُ مِنْ حَالٍ إِلى حَالٍ، فَمَنْ قرأَ ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً ﴾[٢] أي كَيْ لَا يَكُونَ الْفَيْءُ دُولة أَي مُتداوَلًا، وَالدُّولة بِضم الدال فِي الْمَالِ، والدَّولة بفتح الدال في الحرب، وَجاء فِي الحَدِيثِ : حَدِّثْني بِحَدِيثٍ لَمْ يَتَدَاوَلْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ الرِّجال، أَي لَمْ يتناقَلْه الرِّجَالُ وتَرْويه وَاحِدًا عَنْ وَاحِدٍ، إِنما تَحكيه أَنتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ الْحَجَّاجُ بن يوسف الثقفي: يوشِك أَن تُدال الأَرضُ مِنَّا كَمَا أُدِلْنا مِنْهَا، أَي يُجعل لَهَا الكَرَّةُ والدَّوْلة عَلَيْنَا، فتأْكل أجسادنا كَمَا أَكلنا ثِمارها، وتَشرب دِمَاءَنَا كَمَا شَرِبْنَا مِيَاهَهَا. وتَداوَلْنا الأَمرَ: أَخذناه بالدُّوَل. وَقَالُوا: دَوالَيْك أَي مُداوَلةً عَلَى الأَمر، ودَالَت الأَيامُ أَي دَارَتْ، وَاللَّهُ يُداوِلها بَيْنَ النَّاسِ. وتَداوَلَتْهُ الأَيدي: أَخذته هَذِهِ مرَّة وَهَذِهِ مرَّة. ويُقَالُ : دَوَالَيْكَ مِنْ تَداوَلوا الأَمر بَيْنَهُمْ يأْخذ هَذَا دَولة وَهَذَا دَولة، وَقَوْلُهُمْ دَوالَيْك أَي تَداوُلًا بَعْدَ تَدَاوُلٍ ، وَيُقَالُ: تَداوَلْنا العملَ والأَمر بَيْنَنَا بِمَعْنَى تعاوَرْناه فعَمِل هَذَا مَرَّة وَهَذَا مَرَّةً "[٣] .

---

(١) استفدت في هذه المقدمة النظرية من كتابي (حال المتكلم في الحديث النبوي – رؤية جديدة للدرس التداولي) دار الأمل – الإسكندرية – ط١ – ٢٠٢٢م .

(٢) سورة الحشر – الآية ٧ .

(٣) ابن منظور – لسان العرب – دار صادر – بيروت – ط٣ – ١٤١٤هـ – ج١١ ص٢٥٢ – ٢٥٣ .

ويتضح من تفسير ابن منظور أن التداول مأخوذ من الانتقال من حال إلى حال ، وهو تقلب المال بين يدي الناس ، وتقلب الحكم وتداوله بين الأمم ، وانتقال الأيام وتقلبها على الناس بين العسر واليسر ، ولعل من اختاروا الكلمة (التداولية) ؛ ليجعلوها علمًا على هذا المنهج قد نظروا إلى دلالة الكلمة وقدرتها على التعبير عن هذا التفاعل بين المتكلم والمخاطب والمشاركة الفعالة في الحديث ، فجذبتهم هذه الدلالة إلى هذا الاختيار .

تعريف التداولية اصطلاحًا :

بسبب تعدد مجالات التداولية وتنوعها لم يعد من اليسير وضع تعريف لها يستوعب حقيقتها، لذا نعرض عددًا من التعريفات؛ لعلها تساهم مجتمعة في إيصال الصورة وكشف اللثام عن حقيقة المنهج .

– التداوليـة: " هي دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لِمَ تكون مجموعة من الجمل شاذة أو تعد في الكلام المحال؟ مثلاً : أرسطو يوناني لكني لا أعتقد ذلك ! "[(١)] .

ف "ليفنسون" ينظر إلى التداولية كونها المنهج الذي يحدد متى يكون الكلام في حيز التداول المنطقي بين المتكلمين من عدمه؟ إلا أنها نظرة شمولية لم تحدد بدقة حقيقة التداولية، ولم تضع أيدينا بدقة على كنهها.

– التداولية هي " دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفية "[(٢)].

فالتداولية من وجهة نظر ستيفن ليفنسون هي دراسة اللغة في إطار الاستعمال ، وهي دراسة من شأنها أن تسلط الضوء على المتكلِّم والمخاطب، ولا تغفل في ذات الوقت دراسة مفردات النص والسياق الذي

(١) ستيفن ليفنسون – البراجماتية اللغوية – ترجمة د سعيد بحيري – مكتبة زهراء الشرق – القاهرة – ط١ ٢٠١٥م – ص٦.

(٢) المصدر السابق ص٧ .

قيل فيه الكلام ، ولعل هذا ما يميز التداولية عن البنيوية ، أو ما سبقها من مدارس اعتنت بدراسة النصوص بوجه عام .

فهو تعريف يسعى إلى أن يوضح جوانب التركيب اللغوي بعيدًا عن العناصر اللغوية (النحو – الصرف – الصوت – الدلالة) ،لكن مثل هذا التعريف يقتصر على تمييز التداولية اللغوية عن كثير من فروع علم اللغة المهتمة بالاتجاهات الوظيفية في اللغة ومنها علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي[١].

فلم تقتصر التداولية وحدها على العناية بالجوانب الوظيفية في اللغة بل تعاورت معها بعض المناهج الأخرى في الدراسة اللغوية.

- التداولية هي " دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية، فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق، فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط "[٢] .
- التداولية هي: " دراسة جوانب السياق التي تشفر شكليًا في تراكيب اللغة وهي عندئذ جزء من مقدرة المستعمل"[٣] .
- التداولية " فرع من علم يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم أو هو دراسة معنى المتكلم "[٤].

وتعريف توماس يشعر بأن التداولية تُعنى أول ما تُعنى بحال المتكلم قبل كل شيء وفي المقام الأول، والذي هو محور هذه الدراسة.

---

(١) د محمود نحلة – آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر – مكتبة الآداب القاهرة – الطبعة الأولى ٢٠١١ .

(٢) ستيفن ليفنسون – البراجماتية اللغوية – ص١٢ .

(3) Crystal.D (1994) Dictionary of linguistics – Black well- Britain – p271.

(4) Thomas j. (1996) Meaning in Interaction An Introduction to pragmatics . Longman London and New York- p.2.

فقول القائل: "أنا عطشان" – مثلا – قد يعني أحضر لي كوبًا من الماء، وليس من اللازم أن يكون إخبارًا بأنه عطشان، فالمتكلم كثيرًا ما يعني أكثر مما تقوله كلماته، وهذا هو الذي تحاول التداولية البحث فيه ، ما وراء اللفظ من معان يكشفها السياق وحال المتكلم .

ومن هنا رأى بعض الباحثين أن للمعنى مستويات ثلاثة: المعنى اللغوي، وهو مأخوذ من دلالة الكلمات والضمائر والجمل، ومعنى الكلام، وهو المعنى السياقي، ثم المعنى الكامن أو الموجود بالقوة (الدافع وراء التكلم) وهو معنى المتكلم(١).

ولإيضاح ذلك نسوق المثال الآتي: إذا قال لك شخص في سياق محدد: أهذه سيارتك؟ فالسياق الذي أُلقي فيه السؤال لا يدع مجالاً للشك في أن هذه تشير إلى شيء محدد هو السيارة وأن الضمير (كـ) يشير إليك، وعلى الرغم من أنه ليس هناك مشكلة في فهم معنى الكلام (وهو المستوى الأول من معنى الكلام) ، فإنك حتى هذه اللحظة قد لا تكون وصلت إلى معنى المتكلم أو فهم القوة force التي تكمن خلف هذا السؤال، هل المتكلم يريد إجابة عن سؤاله بنعم أو لا؟ أو أنه يخرج عن هذا المعنى الحقيقي إلى مقصود آخر هو– مثلاً– التعبير عن اللوم لأن سيارتك سدت طريق المرور على السيارات الأخرى؟ وهو معنى المتكلم(٢).

ومن ثَمّ كان أقرب تعريف للتداولية هو : " دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئًا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (اجتماعي – لغوي)

(١) المرجع السابق – ص٢ .

(٢) المرجع السابق – ص١٨ .

وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما "[١]. وهو ما سماه إلفي بولان بالثالوث التداولي[٢].

فالتداولية لم تكتف بدراسة اللغة لذاتها كما فعلت البنيوية، وإنما تجاوزتها إلى دراسة استعمال اللغة، واهتمت بتلك العناصر التابعة لهذا الاستعمال وهي: (المتكلم –المتلقي – اللفظ – المقام – التواصل – الفرض) . كما اعتنت بدراسة العلاقة بين مستخدمي اللغة (المتكلم – المتلقي) وعلاقتهما بالسياق والعلاقات التأثرية بينهما في ضوء ما ينتجانه من حوار، فبعض النصوص لا يتبين معناها إلا من خلال معرفة القصد منها، ومن ثم تدرس التداولية اللغة، وتعتني بفهم مستعملي اللغة، وتهتم بمنشئ الكلام (المتكلم) والسياق اللغوي، فالتداولية تتجاوز البنية السطحية إلى دراسة اللغة في حيز الاستعمال، متجاوزةً بذلك حدود الوضع الأصلي المباشر في بعض السياقات التي لا يقصد فيها المتكلم الدلالة المباشرة من الكلام، بل يقصد المعنى السياقي غير المباشر الذي لا يمكن سبر أغواره إلا من خلال سياق الاستعمال الذي يحدد قصد المتكلمين .

فبعض المعاني الثانوية للتعبير كالسخرية والاستنكار والمدح والذم تستفاد من علاقته بالسياق الخارجي . ومخالفة الدلالة للمعنى الظاهر شيء استقر بداهة في أذهان الناس، يدركه من له أدنى بصيرة باللغة، وما درجت عليه العادات، كما في قوله تعالى حكاية عن المشركين في حديثهم مع نبي

(١) المرجع السابق – ص٢٢ / وانظر فيليب بلانشيه – التداولية من أوستن إلى غوفمان – ترجمة صابر الحباشة – دار الحوار للنشر والتوزيع – سوريا – ط١ – ٢٠٠٧م – ص٤٤ – ٤٥ .

(٢) ينظر إلفي بولان – المقاربة التداولية للأدب – ترجمة محمد تنفو – رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة – ط١ – ٢٠١٨ م – ص ١٠٨ .

الله شعيب: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾(١) .

قال الزمخشري في الكشاف : " وأرادوا بقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغىّ، فعكسوا؛ ليتهكموا به، كما يتهكم بالشحيح فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك "(٢).

فلما نهاهم شعيب – عليه السلام – عن التطفيف في الكيل والميزان نعتوه بالسفه والحمق ، ولم يصرحوا بذلك وإنما بضده ، وكأنهم يطعنون فيما اشتهر به شعيب بين قومه من الحلم والرشد ، فيقولون: كيف تكون حليما رشيدا في قومك ؟ وأنت تأمرنا أن نخالف ما ورثناه من عادات عن آبائنا وأجدادنا .

وقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾(٣) .

قال البغوي:" أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، عِنْدَ قَوْمِكَ بِزَعْمِكَ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ يَقُولُ: أَنَا أَعَزُّ أَهْلِ الوادي وأكرمهم، فتقول له هذا اللفظ خزنة النار على طريق الاستخفاف وَالتَّوْبِيخِ " (٤) .

فلما كان حاله في جهنم هو معاناة الذل والهوان والنكال ، خرج قوله تعالى: " إنك أنت العزيز الكريم " مخرج الاستهزاء بأبي جهل الذي يستحيل عقلا أن يوصف بعزٍّ أو كرامة وهو يقاسي ويلات العذاب في نار جهنم .

---

(١) سورة هود – الآية ٨٧ .

(٢) أبو القاسم الزمخشري – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – دار الكتاب العربي – بيروت – ط٣ – ج٢ ص٤٢٠ .

(٣) سورة الدخان – الآيات ٤٧ – ٤٩ .

(٤) أبو محمد البغوي – معالم التنزيل في تفسير القرآن – دار طيبة للنشر والتوزيع – ط٤ – ١٩٩٧ م – ج٧ ص٢٣٦ .

الفصل الثاني

حال المتكلم في الحديث النبويّ

المطلب الأول

حال النبي ﷺ عند الحديث مع أهل الكتاب[١]

حديث النبي ﷺ إلى أهل الكتاب هو حديث الناصح الشفيق بأمته (أعني أمة الدعوة) وهو حديث لا تشوبه مداهنة ولا يداخله غش ، بل هو عين الحقيقة فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: لما أصابَ رسولُ اللهِ ﷺ قُريشاً يومَ بدْرٍ، وَقَدِمَ المدينَةَ، جمعَ اليهودَ في سُوقِ بني قينُقَاعٍ، فقال: يا معشر يهود، أسلموا قبلَ أن يصيبكم مثلُ ما أصابَ قُريشاً، قالوا: يا محمد، لا يغرَّنكَ من نفسِكَ أنْ قتلْتَ نفراً من قريشٍ كانوا أغماراً لا يعرفون القتالَ، إنَّكَ لو قاتلتنَا لعرفتَ أنَّا نحنُ الناسُ، وأنَّكَ لم تلْقَ مِثْلَنا، فأنزَلَ اللَّهُ تعالى في ذلك: {قُلْ لِلَّذِينَ كفرُوا ستُغْلَبُونَ إلى قوله: ﴿فئةٌ تقاتِلُ في سبيل الله﴾ - ببدْرٍ - ﴿وأُخرىٰ كافرةٌ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣] . أخرجه أبو داود[٢].

عن عوف بن مالك قال: " انطلَق النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنا معه حتَّى دخَلْنا كنسيةَ اليهودِ بالمدينةِ يومَ عيدِهم وكرِهوا دخولَنا عليهم فقال لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : (يا معشرَ اليهودِ أَروني اثنَيْ عشَرَ رجُلًا يشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ يُحبِطِ اللهُ عن كلِّ يهوديٍّ

---

(١) قمت بتخريج معظم أحاديث البحث من كتاب جامع الأصول في أحاديث الرسول - تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط -مكتبة دار البيان الطبعة : الأولى ١٩٧١م . حيث حوى كتب السنن والصحاح المعتمدة بفهرس واحد مما يسهل عملية البحث، إلا يسيرا اعتمدت فيه مصادر الأحاديث الأخرى؛ تتمة للفائدة وللإشارة لرواية بعينها.

(٢) جامع الاصول - ج٢ ص٦٥ .

تحتَ أديمِ السَّماءِ الغضَبَ الَّذي غضِب عليه) قال : فأمسَكوا وما أجابه منهم أحَدٌ ثمَّ ردَّ عليهم فلَمْ يُجِبْه أحَدٌ ثمَّ ثلَّث فلَمْ يُجِبْه أحَدٌ فقال : (أبَيْتُم فواللهِ إنِّي لَأنا الحاشِرُ وأنا العاقِبُ وأنا المُقفِّي آمَنْتُم أو كذَّبْتُم) ثمَّ انصرَف وأنا معه حتَّى دنا أنْ يخرُجَ فإذا رجُلٌ مِن خَلْفِنا يقولُ : كما أنتَ يا مُحمَّدُ قال : فقال ذلك الرَّجُلُ أيَّ رجُلٍ تعلَموني فيكم يا معشَرَ اليهودِ ؟ قالوا : ما نعلَمُ أنَّه كان فينا رجُلٌ أعلَمُ بكتابِ اللهِ ولا أفقَهُ منكَ ولا مِن أبيكَ مِن قبْلِكَ ولا مِن جدِّكَ قبْلَ أبيكَ قال : فإنِّي أشهَدُ له باللهِ أنَّه نَبيُّ اللهِ الَّذي تجِدونَه في التَّوراةِ قالوا : كذَبْتَ ثمَّ ردُّوا عليه وقالوا له شرًّا فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : (كذَبْتُم لنْ يُقبَلَ قولُكم أمَّا آنفًا فتُثنونَ عليه مِن الخيرِ ما أثْنَيْتُم وأمَّا إذ آمَن كذَّبْتُموه وقُلْتُم ما قُلْتُم فلنْ يُقبَلَ قولُكم)

قال: فخرَجْنا ونحنُ ثلاثةٌ : رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنا وعبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ فأنزَل اللهُ فيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] (١).

فهو يستعمل الترغيب تارة والترهيب تارة ، ومخاطبة العاطفة حينا والحجاج العقلي أحيانًا، وحديثه إليهم حديث العالم بأخلاقهم ، العارف بطبائعهم ، الذي لا ينطوي عليه أكاذيبهم ، ولا تجري عليه حيلهم ، يؤيده في ذلك الحق الذي جاء به من عند الله وهو القرآن الكريم ، كما يشفع له ذكره ﷺ الذي جاء مفصلا في التوراة والإنجيل ، فهو النبي الحق ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [سورة الأعراف ١٥٧]،

(١) كنز العمال – علاء الدين الهندي البرهان فوري– مؤسسة الرسالة – بيروت – ط٥ – ١٩٨٥م – ج٢ ص٥٠٢ –

وهو ﷺ يوظف هذا كله ببراعة في حجاجه مع أهل الكتاب ، ومن يتأمل حواره ﷺ مع العرب من عبدة الأوثان يجد بونا شاسعا ، وفرقا كبيرا بين أساليب الحجاج هنا وهناك ، فمخاطبة خالي الذهن من علم الوحي ليس كمخاطبة الذي اقتبس شيئا من آثار الأنبياء .

فعلى سبيل المثال لا الحصر نرى نمطًا من حجاجه مع الأعراب من أهل البادية قد بدا بسيطًا يتناول أهم قضايا الدين في سهولة ويسر ، فعن أنس ﷺ: نُهينا في القرآن أن نسألَ رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يُعْجِبُنا أنْ يَجيءَ الرَّجُلُ من أهل البادية العاقلُ، فيسألَهُ ونحن نسمعُ، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمدُ، أتانا رسولُك، فزعم لنا أنك تزعُمُ أنَّ الله أرسلك، فقال: «صدَقَ» . قال: فَمن خلق السماء؟ قال: «الله» . قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله» . قال: فمن نَصَبَ هذه الجبالَ وجعل فيها ما جَعَلَ؟ قال: «الله» . قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض، ونصبَ هذه الجبال، آللَّهُ أرسلك؟ قال: «نَعَمْ» . قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق» . قال: فبالذي أرسلك، آللَّهُ أمرك بهذا؟ قال: «نعم» . قال: وزعم رسولك أن علينا زكاةً في أموالنا؟ قال: «صَدَق» . قال: فبالذي أرسلك، آللَّهُ أمرك بهذا؟ قال: «نعم» ، قال: وزعم رسولُك أن علينا صوم شهر رمضان في سَنتنا؟ قال: «صدق» . قال: فبالذي أرسلك، آللَّهُ أمرك بهذا؟ قال: «نعم» ، قال: وزعم رسولك أنَّ علينا حَجَّ البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «صدق» . قال: فبالذي أرسلك. آللَّهُ أمرك بهذا؟ قال: «نعم» . قال: ثم ولَّى، وقال: والذي بعثك بالحق لا أزيدُ عليهنَّ، ولا أنقُصُ منهن، فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلنَّ

الجنة» .رواه البخاري ومسلم و الترمذي والنسائي[1]. فحجاجه للمكذب الجاحد للحق ليس كحجاجه لمن يطلب الحق ويبحث عنه .

وهو يعرف للمؤمنين من أهل الكتاب حقهم وينزلهم منازلهم ويتخذهم دليلًا واقعيا وشاهدًا حيًا على صدق دعوته ، فهذا عبد الله بن سلام (وكان عالما حبرًا من أحبار يهود) حُكي خبرُ إسلامه رواية عن بعض أهله عنه قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته وإسلامه وزمانه الذى كنا نتوكّف له، فكنت مسرّا لذلك صامتا عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا على رأس نخلة أعمل فيها، وعمتى خلدة بنت الحارث تحتى جالسة، فلما سمعت الخبر كبّرت؛ فقالت عمتى حين سمعت تكبيرى: خيبك الله! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت. قال: قلت لها: أى عمة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به؛ قالت: أى ابن أخى، هذا النبى الذى كنا نخبر به أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قلت نعم؛ قالت: فذاك إذا؛ قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت؛ فلما رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامى من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنّ يهود قوم بهت، وإنى أحبّ أن تدخلنى بعض بيوتك فتغيّبنى عنهم، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى، فإنهم إن علموا به بهتونى؛ قال: فأدخلنى رسول الله ﷺ بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه ثم قال لهم: «أىّ رجل الحصين بن سلام فيكم» ؟ فقالوا: سيدنا وابن سيدنا وعالمنا؛ فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فو الله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة

(١) جامع الأصول – ابن الأثير – ج١ ص٢١٧ .

باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به، وأصدقه وأعرفه؛ فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بى، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؛؟ قال: وأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمت عمتى خلدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

وأمّا مخيريق فقد كان حبرًا عالمًا، وكان غنيا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد فى علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أحد وهو يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أنّ نصر محمد عليكم لحقّ؛ قالوا: إنّ اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت فى هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله؛ فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ فيما حكى يقول: «مخيريق خير يهود» ، وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامّة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها(١).

ومن أساليب الحجاج الفريدة التي استعان بها النبي ﷺ في محاورته لأهل الكتاب إثبات صدق ما جاء به بموافقته ما جاء في كتبهم ، فقد خرج الوحي كله من مشكاة واحدة ، فيحينما أرادوا أن يحيدوا عن حكم الله الذي في كتابهم (في رجم الزاني المحصن) لجأوا إلى النبي ﷺ ؛ لعلهم يجدون عنده حكما مخففًا ، ولكنه ﷺ وظف هذه الإشكالية لصالحه وأخبرهم أن القرآن جاء هو الآخر مصدقًا لما جاء في التوراة من الأحكام والشرائع . فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: إن أحبار يهود اجتمعوا فى بيت المدراس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد زنى رجل بينهم بعد إحصانه بامرأة من يهود قد أحصنت، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة

(١) نهاية الارب– النويري – ج١٦ ص٣٦٤ .

إلى محمد، فاسألوه كيف الحكم فيهما، وولّوه الحكم عليهما، فإن عمل فيهما بعملكم من التّجبية- والتجبية: الجلد بحبل من ليف قد طلى بقار، ثم تسوّد وجوههما، ثم يحملان على حمارين، وتجعل وجوههما من قبل أدبار الحمارين- فاتبعوه فإنما هو ملك، وصدّقوه، وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبىّ، فاحذروه على ما فى أيديكم أن يسلبكموه، فأتوه فقالوا: يا محمد، هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت، فآحكم فيهما، فمشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم فى بيت المدراس، فقال: «يا معشر يهود أخرجوا إلىّ علماءكم» ، فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهوذا، فقالوا: هؤلاء علماؤنا، فساءلهم رسول الله ﷺ، ثم قالوا: هذا عبد الله بن صوريا أعلم من بقى بالتوراة، فخلا به رسول الله ﷺ، وكان غلاما شابا من أحدثهم سنّا، فقال له: " يا بن صوريا، أنشدك الله، وأذكّرك بأيّامه عند بنى إسرائيل، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم فى التوراة» ؟ قال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك لنبىّ مرسل، ولكنهم يحسدونك، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر برجمهما،فرجما عند باب مسجده، ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا، وجحد نبوّة رسول الله ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ فأمر برجمهما، فرجما عند باب مسجده، ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا، وجحد نبوّة رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [سورة المائدة الآية ٤١] (١).

(١) نهاية الارب – النويري – ج١٦ ص ٣٨٥ .

وقد ساقها أبو داود من حديث أبي هريرة سياقة حسنة فقال : أبو هريرة ﷺ قال: «زَنى رجلٌ من اليَهودِ وامرأةٌ، فقال بعضُهم لبعضٍ: اذْهَبُوا بنا إلى هذا النبيِّ فإنه نبيٌّ بُعِثَ بالتَّخْفِيفِ، فإن أفْتَانا بِفُتيَا دونَ الرَّجم قَبلناهَا واحْتججنا بها عند الله، قلنا: فُتْيَا نبيٍّ من أَنبيائك، قال: فَأتوا النبيَّ ﷺ وهو جالسٌ في المسجد في أصحابهِ فقالوا: يا أَبا القاسم، ما تَرَى في رجلٍ وامرأَةٍ منهم زَنَيا، فلم يُكَلِّمْهُم كلمةً حتى أَتى بَيْتَ مِدْرَاسِهِمْ، فَقامَ على الباب فقال: أَنْشُدُكُم الله الذي أَنْزَلَ التوراةَ على موسى، ما تَجِدُونَ في التَّورَاةِ على مَنْ زَنى إذا أَحْصَنَ؟ قالوا: يُحمَّمُ ويُجَبَّهُ وَيُجْلَدُ – والتَّجْبيهُ: أَنْ يُحمَلَ الزَّانِيانِ على حمارٍ وتُقَابَلَ أَقْفِيتُهُما، ويُطافَ بهما – قال: وسَكَتَ شَابٌّ منهم، فلما رآه النبيُّ ﷺ سَكَتَ، أَلَظَّ به النِّشدَةَ فقال: اللَّهُمَّ إذْ نَشَدْتَنا، فَإنا نَجِدُ في التَّورَاة الرَّجمَ، فقال النبيُّ ﷺ: فما أَوَّلَ ما ارْتَخَصْتُمْ أمرَ الله؟ قال: زَنى ذُو قَرَابةٍ من ملكٍ من مُلُوكِنا فَأَخَّرَ عنه الرجمَ، ثم زَنى رجلٌ في أُسرَةٍ من الناس، فَأرادَ رَجْمهُ، فَحالَ قومُهُ دُونَهُ، وقالوا: لا تَرْجمُ صَاحِبَنَا حتَّى تَجيءَ بِصَاحِبكَ فَترْجمَهُ، فاصطلَحُوا على هذه العُقُوبَةِ بينهم، قال النبيُّ ﷺ: فإني أَحْكمُ بما في التَّورَاة، فَأمَرَ بهما فَرُجِما»[1] .

(١) جامع الأصول – ابن الأثير – ج٣ ص٥٤٥ .

المطلب الثاني

حاله ﷺ في الحديث مع الأطفال

إن وجدان الطفل الصغير كصفحة بيضاء ينطبع فيها حديث الكبير وفعله ، لذا فقد حرص الرسول ﷺ أن يلاطفهم ويرفق بهم ويلين لهم القول، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير وهو فَطيم – كان إذا جاءنا، قال: يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير، لِنُغَرٍ كان يلعب به، وربما حضرت الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته، فيكنس ثم يُنضَح، ثم يقوم ونقوم خلفه، فيصلي بنا» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي(١).

وقد حرص ﷺ على أن يكون الوحيُ هو أول شيء يشكل وجدان هؤلاء الصغار، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : «أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُعَوِّذُ الحسنَ والحسين، ويقول: إنَّ أباكُما كان يُعَوِّذُ بهما إسماعيل، وإسحاق: أَعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطانٍ وهامَّةٍ، ومن كل عَيْنٍ لامَّةٍ» . أخرجه البخاري، والترمذي، وأَبو داود(٢).

وتعليم النبي ﷺ لهؤلاء الصغار منه ما هو باللفظ ومنه ما هو بالفعل لذا نراه ينزع التمر من فم الصغير ويخبره أن آل النبي لا يأكلون الصدقة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ يُؤتَى بالتَّمرِ عند صِرَامِ النخل، فيجيءُ هذا بتمرةٍ، وهذا بتمرةٍ، حتى يَصِيرَ عنده كَوْماً من تمر الصدقة، فجاء الحسن، والحسين يلعبان بذلك التمر، فأخذ أَحدُهما تمرة، فجعلها في فِيهِ، فنظر إليه رسول الله ﷺ، فأخرجها من فيه، وقال: أَمَا عَلمتَ أن آل

(١) جامع الأصول – ج١١ ص٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق – ج٤ ص٣٦٩ .

محمد لا يأكلون الصدقة؟»[١]. إن اجتماع التوجيه الفعلي بنزع التمر من فم الصغير مع التوجيه القولي المتمثل في إخباره أن آل النبي ﷺ لا يأكلون الصدقة يمثل إرشادا نفسيا تضافر فيه التوجيه بشتى صوره، فلا يمكن أن تمحوه السنون بمرورها من وجدان الصغير .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كنتُ رَدِيفَ رسول الله ﷺ فقال لي: يا غلام، احفظ الله يَحفظْك، احفظ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّف إلى الله في الرَّخاء يَعْرِفْكَ في الشدة، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعِنْ بالله، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لَكَ، لم يَقدِرُوا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يَقْدِرُوا على ذلك، جَفَّتِ الأقلام، وطُوِيتِ الصحف، فإن استطعتَ أن تعمل لله بالرضى في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العُسْر يسراً، ولن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرَينِ»[٢].

إن النص الذي بين أيدينا يحمل في طياته عمقًا دلاليا يجعلنا نتجاوز حدود اللفظ لنسبر أغواره ، فهو نص خاطب به النبيُّ ﷺ طفلا لم يتجاوز العاشرة ، ومع ذلك نرى مضمونًا يلخص أهم قضايا الدين ، ولسنا بصدد شرح النص ولكننا سنقف هنا مع وعي النبي ﷺ كيف كان ابن عباس جديرا بهذه الوصية ، وخليقا بأن يتلقى هذه التعاليم مع جلالة صياغتها ، وهذا هو البعد التداولي في النص حيث أدرك المتكلم قدرة المستمع على فهم ما يلقى وقدرته على تحمل تلك النصوص التي هي من مهمات الدين .

(١) المصدر السابق – ج٤ ص٦٦٣ .

(٢) جامع الأصول – ج١١ ص٦٨٥ .

كما نرى عاطفة النبي ﷺ تجاه أحفاده تتجسد واقعا مرئيا في أشد المواقف جدية ، فهو يعبر عن حبه وتعلقه بالصغير بصورة عفوية غير متكلفة تبرز من خلالها شفقته ﷺ ومحبته لأحفاده، فعن بريدة ﷺ قال: «كان رسولُ الله ﷺ يَخْطُبُنا، فجاء الحسن والحسين (عليهما السلام)، وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويَعْثُران، فنزل رسولُ الله ﷺ من المنبر، فحملهما، ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله {إِنَّما أَمْوَالُكُم وَأَوْلاَدُكم فِتْنَةٌ} [التغابن: ١٥] نظرت إلى هذين الصبيّين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتُهما»(١).

فنراه ﷺ يقطع خطبته في يوم الجمعة وينزل من على المنبر، قد شخصت إليه أبصار القوم في هذا اليوم وفي هذه الساعة مع شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام؛ ليحمل الطفلين الصغيرين ثم يعود ويستأنف خطبته مرة أخرى ، ثم يبرر ﷺ ما فعله لمستمعيه بأنه لم يصبر على رؤية الطفلين يعثران في مشيتهما حتى احتملهما بين يديه .

لقد كان هذا دأبه وعادته مع الطفل بشكل عامٍّ ؛ فعن أنس بن مالك ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «إني لأدخلُ في الصلاة وأنا أُريدُ أن أطيلَها، فأسمعُ بكاءَ الصَّبي فأتجوَّزُ في صلاتي، مما أعلمُ من شِدَّة وجْدِ أُمِّه من بكائه» .وفي رواية قال: «كان رسولُ الله ﷺ يسمع بكاءَ الصبي مع أمِّه وهو في الصلاة، فيقرأُ بالسورة الخفيفة، أو بالسورة القصيرة»(٢) .

ثمّت قضيةٌ أخرى اعتنى بها النبي ﷺ وهو يستمع إلى الأطفال وهي تصديقهم فيما يقولون ما لم تكن هناك قرينةٌ تصرف الكلام عن مطابقته للحق، وحمل ما يقولونه على محمل الجد وليس الهزل، من ذلك ما ذكره

(١) المصدر السابق – – ج٩ ص٣٢ .
(٢) جامع الأصول – ابن الأثير – ج٥ ص٥٩٢ .

النويريُّ حيث يقولُ: " كان رجالٌ من الأوس والخزرج ممن أسلم وهو على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعثة، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جنّة من القتل، ونافقوا فى السّر، وكان هواهم مع يهود؛ لتكذيبهم وجحودهم الإسلام، فكان منهم من الأوس جلاس بن سويد بن صامت، وأخوه الحارث بن سويد، قال: وجلاس هو الذى قال عند تخلفه عن غزوة تبوك: لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شرّ من الحمير، فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله ﷺ عمير بن سعد، وكان فى حجر جلاس خلف على أمه بعد أبيه، فلما تكلم جلاس بهذا قال له عمير: والله يا جلاس، إنك لأحبّ الناس إلىّ، وأحسنهم عندى يدا، وأعزّهم علىّ أن يصيبه شىء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنّك، ولئن صمتّ عليها ليهلكن دينى، ولإحداهما أيسر علىّ من الأخرى، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال، فحلف جلاس لرسول الله ﷺ بالله لقد كذب علىّ عمير، وما قلت ما قال، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [سورة التوبة الأية ٧٤] أخذ النبي ﷺ بأذن عمير وقال: "يا غلامُ ، وفّتْ أذنُك وصدَّقَك ربُك ،قال ابن إسحاق: فزعموا أنه تاب فحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير، والله أعلم بالصواب [١].

(١) ينظر نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين النويري – ج١٦ ص٣٥٢ + مقالة بعنوان " مَن مالَ من المنافقين من الأوس والخزرج إلى اليهود وبعض أمور دارت بين الرسول وبينهم " www.islamweb.net

لقد استشعر الصبيُّ المسئولية تجاه دينه ، ورأى أنه من الواجب أن ينبّه النبيَّ صلى الله عليه وسلم لوجود رجل من المنافقين وسط جنوده وبين صفوف أصحابه، وبرغم محبة الطفل لجُلَاس الذي تزوج أمه وأحسن إليه وأكرمه ، إلا أن الولاء لدينه كان فوق كل مقام ، فذهب وأخبر النبي ﷺ الخبر وصدّقه النبيُّ ، أو على الأقل لم يكذبه ولم يقل إنه صغير لا يعي ما يقول ولا يدري ما يتكلم به، حتى نزل القرآن بتصديق الصبيِّ وإقرار مقالته ، هنا يفرح النبي ﷺ ؛ لأن الطفل لم يشهد زورا ولم يكن كلامه من قبيل الوهم، بل جاء كلامه مطابقًا للحقيقة، وظهر من النص كيف كان الصبيُّ واعيًا ما حوله مدركًا حديث الكبار بما فيه من تداعيات خطيرة .

المطلب الثالث

حاله ﷺ في الحديث مع أزواجه

عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي، وإذا مات صاحبُكم فدَعُوهُ» . أخرجه الترمذي[1]. لقد كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم مع أزواجه مثالًا حيا لهذا الحديث، نلمس ذلك من عدة مواقف نوجز بعضها فيما يلي .

فعن عائشة رضي الله عنها : قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم: «يا عائشةُ، هل عِنْدَكم شيء؟ قالتْ: فقلتُ: يا رسولَ الله، ما عندنا شيء، قال: فإني صائم، قالت: فخرج رسولُ الله ﷺ، فأُهْدِيت لنا هَديَّة – أو جاءنا زَوْر – فلما رجعَ رسولُ الله ﷺ قلتُ: يا رسولَ الله، أُهْدِيَتْ لنا هَديَّة – أو جاءنا زَوْر – وقد خبَأْتُ لك شيئاً، قال: ما هو؟ قلت: حَيْس، قال: هاتيه، فجئتُ به فأكلَ، ثم قال: قد كنتُ أصبحتُ صائماً»[2]. إن معاناة ألم الجوع بالنسبة للزوج هي أحد أسباب الشقاق بين الزوجين ، ولكننا نلمس من هذا الموقف كيف كانت شفقته ﷺ بنسائه فهو ﷺ لا يكلف أزواجه فوق طاقتهن ، إن الذي يمكن قراءته من وراء تلك السطور هو طبيعة العلاقة بين الزوجين مع إدراكنا جانبًا مضيئا من حياته ﷺ، وكيف كان يزن الأمور بميزانها الدقيق ، فيأتي حديثه ملائمًا للموقف.

وهو ﷺ يُعلِّم أزواجه أيضًا أن يسلكن هذا السلوك ، فلا يُثرن فتنة ولا يؤججن شجارًا مع الخصوم، فعن عائشة رضي الله عنها : قالت: «دخل رهط من اليَهود على رسولِ الله ﷺ، فقالوا: السَّام عليك، قالت عائشة: ففهمتُها، فقلت: عليكم السَّام واللعنةُ، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ: مهلاً يا عائشةِ إن

(١) جامع الأصول – ابن الأثير – ج١ ص٤١٧ .

(٢) المصدر السابق –ج٦ ص٢٨٦ .

الله يحب الرِّفْقَ في الأَمر كلِّه، فقلت: يا رسولَ الله، ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسولُ الله ﷺ: قد قلتُ: وعليكم»[1] .

إن الغَيرة غريزة فطرية في كل امرأة ، لا سيما الزوجة التي تزوج زوجها بأكثر من واحدة ، وهي محمودة بين الزوجين إذا كانت بالقدر الذي لا يثير خلافًا، أو يعكر صفو ما بين الزوجين من ودٍّ، لذا نراه ﷺ يحذر من الإفراط فيها ويبين أنها مدخل من مداخل الشيطان وسبيل من سبل الوسوسة؛ لإيقاع الخصومة بين الزوجين، فعن عائشة رضي الله عنها «أنَّ رسولَ الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فَغِرْتُ عَلَيْهِ، فجاءَ فرأَى ما أصنع، فقال: ما لَكِ يا عائشة، أَغِرْت عليَّ؟ فقلت: وما لي لا يغارُ مثلي على مِثْلِكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: أقد جاءكِ شَيْطَانُكِ؟ قالت: يا رسولَ الله أوَ مَعِيَ شيطان؟ قال: نعم، قلتُ: ومع كلِّ إنسان؟ قال: نعم، قلتُ: ومعكَ يا رسول الله؟ قال: نعم، ولكنْ أعانني الله عليه حتى أسلَمُ» أخرجه مسلم والنسائي[2].

ولرسول الله ﷺ أيضا نصيبٌ من هذه الغيرة ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وعندي رجلٌ قاعدٌ، فاشتدَّ ذلك عليه، ورأيتُ الغضبَ في وجهه، قالت: فقلت: يا رسولَ الله، إنه أخي من الرَّضاعة، فقال: انظرْنَ إخوتَكُنَّ من الرضاعة، فإنما الرضاعة من المجاعة» أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي[3] فرسول الله ﷺ في هذا الحديث يأمرها بالتحري في إثبات الإخوة من الرضاعة وعدم التساهل فيها إلا ما أكدته البينة وصدقته الدلائل، فإن الرضاعة المحرمة رضاعة مخصوصة وليست أية رضاعة ، فهي رضاعة للطفل دون العامين أي في سن الإرضاع

(١) المصدر السابق – ج٦ ص٦١١ .
(٢) جامع الأصول – ابن الأثير – ج٨ ص٤٣٤ .
(٣) المصدر السابق – ج١١ ص٤٧٨ .

المشروع ، أما فوق العامين فلا يعتد بها في تحريم، وبذلك يصير الرجل أجنبيا عن المرأة، وغَيرته ﷺ في ذلك غيرة لا تحكمها الأهواء، ولا تسوقها الظنون، بل يضبطها الشرع، ويحكمها الوحيُ المنزَّل من عند الله عز وجل.

وحتمًا سنجد هذه الغيرة قد تحركت بين أزواجه ﷺ ، ثتيرها العصبية حينًا ويؤجهها الهوى تارة، فعن صفيةَ بنتِ حييٍّ رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، وقد بلغني كلام عن حفصة وعائشةَ، فذكرتُ ذلك له، فقال: ألا قُلتِ: كيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمِّي موسى؟ وكان الذي قالتا: نحن على رسولِ الله ﷺ أكرم منها، وقالوا: نحنُ أزْواجُ النبيِّ ﷺ، وبناتُ عمِّه» وفي أخرى قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، وكانت حفصة قالت لها:يا ابنةَ يهودَ، فأخبرتُه، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ألا تَتَّقِينَ الله يا حفصة؟ إنها لابنةُ نبيّ، وإن عمَّها نبيّ، وإنها لَتَحْتَ نبيّ، فَبِمَ تَفْخَرينَ عليها؟ قالت: بنت يهوديّ» رواه الترمذيُّ(١).

لقد استغلت حفصة وعائشة رضي الله عنهما قرابتهما من رسول الله ، وأخذا يتساميان طولًا على السيدة صفية (رضي الله عن الجميع) مما أثار الحزن والوجد في نفس صفية ، إلا أن النبي أخبرها أن لا تقلُّ شرفًا عنهما ؛ فأبوها نبي (إشارة إلى هارون) وعمها نبي (إشارة إلى موسى) وزوجها أشرف نبي وهو محمد ﷺ .

وعائشة رضي الله عنها تقول: ما غِرْتُ على أحد من نساء النبيِّ ﷺ ما غِرْتُ على خديجة قطّ، وما رأيتُها قط، ولكن كان يُكثر ذِكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يُقَطِّعها أعضاءَ، ثم يَبْعَثُها في صدائق خديجة، وربما قلتُ له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت، وكانت، وكان لي

(١) المصدر السابق – ج٩ ص١٤٣

منها ولد. وفي رواية قالت: «وتزوَّجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربُّه عز وجل: أن يبشِّرَها ببيت في الجنة من قصب» قال في رواية «وأمره الله عز وجل أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة، فيهدي في خلائلها منها ما يَسَعُهنّ» . وفي أخرى «وكان إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة، قالت: فأغْضَبْتُه يوماً، فقلت: خديجة عجوز، فقال: إني رُزِقْتُ حُبَّها»(١).

والقارئ لهذا النص يلمس أن النبي ﷺ لم تمنعه غيرة عائشة رضي الله عنها من ذكر فضائل خديجة والتصريح بذلك في كل موقف ، وإظهار الاهتمام بكل ما يمتُّ لها بسبب، فهو ﷺ يعرف لخديجة رضي الله عنها قدرها ويذكرها كل حين ، الأمر الذي حدا بعائشة رضي الله عنها أن تغضب ،وتصرح بذلك، وتتساءل مستنكرة من هذه المرأة العجوز التي لا تنفك عن ذكرها في كل مناسبة ؟ وقد أبدلك الله بعدها أزواج أصغرَ منها سنًّا وأجمل منظرا (فيما يبدو للسيدة عائشة رضي الله عنها) .

ومع هذه الغيرة المحمودة المتبادلة بين النبي ﷺ وبين أزواجه، نرى سلوكًا ينم عن ود ومحبة متبادلة بين النبي وبينهنَّ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ جالساً، فسمعنا لَغَطاً وصَوْتَ صِبْيان، فقام النبيُّ ﷺ، فإذا حبشيّة تَزْفِنُ، والصبيانُ حولها، فقال: يا عائشة، تعالَيْ فانظري، فجئتُ فوضعتُ لَحْيي على مَنكِبِ رسولِ الله ﷺ، فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: أما شَبِعْتِ؟ أما شبعتِ؟ قالتْ: فجعلتُ أقولُ: لا؛ لأنظر منزلتي عنده .....» أخرجه الترمذي(٢). فعائشة رضي الله عنها تبدي

(١) المصدر السابق – ج٩ ص١٢١ .

(٢) المصدر السابق – ج٨ ص٦١٨ .

رغبتها في مواصلة المشاهدة ، ليس من أجل ذات المشاهدة وإنما لتختبر صبر النبي ﷺ المشعر بمكانتها عنده.

إن هذه المحبة وتلك الألفة بين الزوجين لتسمح بشيء من اللهو البريء الذي لا يخامره إثم ولا تشوبه معصية، فعن عائشة رضي الله عنها «أن رسولَ الله ﷺ قدِمَ مِنْ غَزْوة تبوك وفي سَهْوَتِها سِتْر فهبَّتْ ريح، فكشفت ناحية السِّتْرِ عن بناتٍ لعائشة لُعَب، فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي، ورأى بينهنَّ فرساً له جناحان من رِقاع، فقال: وما هذا الذي أرى وَسْطُهنّ؟ قالت: فَرَس، قال: وما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان، قال: فرس له جناحان؟ قالت: أما سمعت أن لِسُليمان عليه السلام خَيلاً لها أجْنِحَة؟ فضحكَ حتى رأيتُ نواجِذهُ» رواه البخاري ومسلم(١).

لقد رسّخ النبيُّ ﷺ مبدأ الشورى وجعل لأزواجه نصيبًا من هذه الشورى، والاستشارة سؤال يحمل في طياته وعي السائل بقدرة المسئول على أن يأتي برأي يستحسنه السائل، فليس الأمر مجرد سؤال ، بل ثقة في رجاحة عقل المسئول ، وقدرته على تقديم حلولٍ ربما قد خفيت على السائل، وهو بناء لجدار الثقة بين السائل والمسئول، وهذا مع حدث بين النبي ﷺ وبين السيدة أم سلمة رضي الله عنها في صلح الحديبية حيث شعر الصحابة بالحزن بعد أن قفلوا عائدين من مكة ولم يعتمروا، فأمرهم النبي ﷺ بالحلق ، فلم يستجيبوا له ، وكأنهم في انتظار أمر يطرأ أو حادث يجدُّ بشأن العمرة التي منعوا عن القيام بها بسبب تعنت قريش في إبرام الصلح، ولأم سلمة دور في هذه القضية حيث أشارت على النبي أن يبدأ بنفسه فيحلق ، فالفعل في نفوس الناظرين أشد وقعا وأعظم أثرا من القول لدى السامعين ، فليس من رأى وعاين الحلق كمن سمع .

(١) المصدر السابق – ج ١٠ ص ٧٥٣ .

فعن عروة بن الزبير ﷺ في حديث صلح الحديبية الطويل قال : «..... فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: قُوموا فانحروا، ثم احْلِقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يَقُمْ منهم أحد دخل على أُمِّ سَلَمَةَ، فذكر لها ما لَقيَ من الناس، قالتْ أُمُّ سلمةَ: يا نبيَّ الله، أَتُحِبُّ ذلك؟ اخرج، ولا تكلِّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حَالِقَكَ فيحلقك، فخرج فلم يكلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحرَ بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يَحْلِقُ بعضاً، حتى كادَ بعضُهم يقتُل بعضاً غمّاً....." رواه البخاري وأبو داود(١).

وقد عرض للنبي ﷺ أمرٌ ألجأه للسكوت واضطره للصمت فقد اجتمع نسوته كلهن يسألنه من النفقة ما يفوق طاقته ولا يحتمله، حتى نزل قول الله حاسما للأمر بأن من ضاقت بالعيش مع رسول الله في عسره ومكرهه فلتخبره بذلك حتى يطلقها ويسرّحها، ومن رضيت بالكفاف من العيش فقد اختارت الله ورسوله والدار الآخرة ، وسكوت النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف يشعرنا أنه بحاجة إلى وحي من الله حتى يحل هذه المسألة وتلك المعضلة ، حتى جاء وحي الله له في القرآن بأن عليهنَّ أن يصبرن على ضيق العيش أو يبادرن إلى الطلاق .

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «إن أبا بكر جاء يستأذن على رسولِ الله ﷺ فوجد الناس ببابه جلوساً، لم يُؤذَنْ لهم، فأُذِن له فدخل، ثم أقبل عمر، فاستأذن فأُذِن له، فوجد رسولَ الله – ﷺ جالساً حَولَه نساؤه، واجماً ساكتاً، فقال أبو بكر: لأقولَنَّ شيئاً أُضحك به رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، لو رأيتَ بنتَ خارجة تسألني النفقة، فَقُمْتُ إليها فوجَأتُ عنقها؟ فَضَحِك

(١) المصدر السابق – ج٨ ص٣٢٤ .

رسولُ الله ﷺ وقال: هُنَّ حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها، وقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول: تَسألْنَ رسولَ الله ﷺ ما ليس عنده؟ فقلن: والله لا نسأل رسولَ الله أبداً شيئاً ليس عنده، قال: ثم اعتزلهم شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية {يا أيُّها النبيُّ قل لأزواجك} – حتى بلغ – ﴿ للمحسناتِ منكنَّ أجراً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩] قال: فبدأ بعائشة، فقال: يا عائشة، إني أريدُ أَن أعْرِض عليكِ أمراً أُحِبُّ أن لا تَعْجَلي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسولَ الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسولَ الله أستشير أبويَّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألكَ أن لا تُخْبِرَ امرأةً مِنْ نسائك بالذي قلت، قال: لا تسألُني امرأةٌ مِنْهُنَّ إلا أخبرتُها، [إن الله] لم يبعثْني مُعْنِّتاً ولا مُتَعَنِّتاً ولكن بعثني مُعَلِّماً مُيَسِّراً» أخرجه مسلم(١).

(١) المصدر السابق – ج١١ ص٤٢٣ .

المطلب الرابع

حاله ﷺ في وقوفه على المنبر

ارتبط المنبر في حياة النبي ﷺ بهذه الشعيرة العظيمة وهي الخطبة ، والخطبة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لا تعني خطبة الجمعة فقط وإنما كان ﷺ إذا حزبه أمر سارع إلى المنبر ؛ ليعلم الناس ما جهلوا ، أو ليثبت قلوبهم عند الفتن أو حلول نائبة ونحو هذا، لذا فقد ربط النبي ﷺ في أذهان أصحابه بين المنبر وعظائم الأمور ، فإذا رأى أصحابه صعوده ﷺ على المنبر عرفوا أن الأمر جلل .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «كان رسولُ الله ﷺ إذا خطب: احْمَرَّتْ عيناه، وعلا صوتُه، واشتد غضبُه، حتى كأنه مُنْذِر جيش، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم، ويقول: بعثتُ أنا والساعةَ كهاتين، ويقرْن بين إصبعيه: السبَّابةِ والوسطى، ويقول: أما بعدُ، فإن خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرُ الهدْي هدْيُ محمد، وشرُّ الأمورِ مُحْدَثاتُها، وكلُّ بدْعةٍ ضلالة، ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، مَنْ ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيناً أو ضياعاً فإليَّ وعليَّ» .رواه مسلم(١). ونلمس من الحديث حالة النبي ﷺ عند صعود المنبر وهي حالة مهيبة في نفوس من يشاهده، حتى إن جابر يشبه النبي ﷺ حال صعوده المنبر وارتفاع صوته واحمرار عينه بمن ينذر جيشا يوشك أن يلتحم بعدوه ، هكذا استطاع النبي ﷺ أن يربط بين صعوده المنبر ومن عظائم الأمور في نفوس أصحابه، وكأن صعود المنبر ضرب من ضروب التهيئة النفسية لما سيأتي من الكلام.

وعن عامر بن شُراحيل الشعبي – رحمه الله – «أنه سأل فاطمةَ بنتَ قيس أُخْتَ الضحاك بن قيس – وكانت من المهاجرات الأُوَل – فقال:

(١) المصدر السابق – ج٥ ص٦٧٩ .

حدِّثيني حديثاً سمعتيه من رسولِ الله ﷺ، لا تُسنِديه إلى أحد غيرِه، فقالت: لئن شئتَ لأَفْعَلَنَّ، فقال: أجل حدِّثيني، فقالت: سمعتُ نداء المنادي – منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاةَ جامعة، فخرجتُ إلى المسجد، فصلّيتُ مع رسولِ الله ﷺ، فكنتُ في النساء التي تَلي ظهورَ القوم، فلما قضى رسولُ الله ﷺ صلاته، جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ليلزم كلُّ إنسان مُصَلاه، ثم قال: أتدرون لِمَ جَمَعْتُكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إني واللهِ ما جَمَعْتكم لِرَغْبَة، ولا لِرَهبَة، ولكن جمعتُكم لأن تَميماً الداريَّ كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايَعَ وأسلم، وحدَّثني حديثاً وافَقَ الذي كنتُ أُحدِّثكم عن المسيح الدجال » . رواه مسلم وأبو داود(١).

لقد كان حديث النبي ﷺ عن المسيح الدجال ضربًا من الغيب الذي لا يعلمه إلا نبيٌّ ، لذا نرى سعادة النبي ﷺ بالغة وهو يحدث عن رجل من أصحابه أسلم لما رأى الدجال رأي العين ، حيث أخبره الدجال عن نبي آخر الزمان الذي سوف يظهر في جزيرة العرب، فجاء حديث الدجال مع تميم مصدقًا برسالة النبي ﷺ من جهة، وموافقا لما حدَّث به النبي ﷺ أصحابَه بشأن الدجال من جهة أخرى، لذا نرى النبي ﷺ – كعادته – يلجأ إلى المنبر ويجمع أصحابه؛ ليقص عليهم الخبر .

إن المتتبع لأثر الخطبة والمنبر على أصحاب النبي ﷺ سيعي – بلا ريب – كيف كان وقعهما في نفوس أصحابه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: خَطبَ رسولُ الله ﷺ خُطْبة ما سمعتُ مثلَها قَطُّ، فقال: «لو تعلمون ما أعلمُ لضَحِكتم قليلاً، ولبَكَيْتمْ كثيراً» ، قال: فَغَطَّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خنين (وهو بكاء بصوت)، فقال رجل: من أبي؟

(١) المصدر السابق – ج١٠ ص٣٣٢ .

قال: فلان، فنزلت هذه الآية ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسُؤْكُم﴾ [المائدة: آية ١٠١] رواه البخاري ومسلم(١).

وعن عائشة ﵂ في حديث الإفك الطويل ومنه : « فقام رسولُ الله ﷺ من يومِهِ فاستعذرَ من عبد الله بن أُبيٍّ بن سلولٍ (أي طلب من الناس العذر إن هو نكّل بهذا المنافق الذي رمى عائشة بالبهتان)، فقال رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر: مَنْ يَعْذِرُني من رجلٍ بَلغني أذاه في أَهلي؟ فو اللهِ ما علمتُ على أَهلي إلا خيراً، ولقد ذَكرُوا رَجُلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدَخُلُ على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعدُ بنُ مُعاذٍ أحدُ بني عبدِ الأشهلِ، فقال: يا رسولَ الله، أَنا واللهِ أعْذِرُك منه، إنْ كان من الأوْس ضربنا عُنُقَهُ، وإن كان مِن إخواننا من الخَزْرَج أمرْتَنَا ففعلنا فيه أمْرَكَ ..... فتثاوَر الحيَّانِ الأوسُ والخزرجُ حتى هَمُّوا أنْ يقْتتِلُوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر ، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يُخفِّضُهمْ حتَّى سَكتُوا وسكتَ » رواه البخاري ومسلم(٢). وعائشة ﵂ : قالت: لمَّا أُنْزِلَ عُذْرِي، قام رسولُ الله ﷺ على المنبر، وذكرَ ذلك،وتلا القُرآنَ، قالت: وأَمرَ برَجُلَيْنِ وامرأَةٍ، فَجُلِدوا الحدَّ. أخرجه الترمذي(٣).

فلا شيء أدل على منزلة المنبر ودوره في مهمات الأمور أكثر من حادثة الإفك ؛ فلا شيء أعز على الإنسان من عرضه ، لذا نراه ﷺ يَهرع إلى المنبر في هذا الخطب الجلل الذي تولى كبره جماعة من المنافقين؛ ليطعنوا في شرف النبي ﷺ؛ ولينالوا من دعوته ورسالته، فجاءهم رد النبي ﷺ حاسما من على المنبر بتشديد النكال بهؤلاء الذين خاضوا في

(١) المصدر السابق – ج٢ ص١٢٢ .
(٢) المصدر السابق – ج٢ ص٢٥٠ .
(٣) المصدر السابق – ج٢ ص٢٧٩ .

عرض السيدة عائشة ﵂ بلا أدنى بينة أو دليل ، ولست بصدد الخوض في المسألة وبسطها ، ولكني رصدت كيف استعان النبي ﷺ بالمنبر في كل واقعة ذات شأن .

وعن ابن عمر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطوِي الله – عز وجل – السمواتِ يوم القيامة، ثم يأخُذُهُنَّ بيده اليُمنى، ثم يقول: أَنا الملكُ، أَيْن الجبَّارُون؟ أينَ المتَكبِّرون؟ ثم يطوِي الأرض بشِماله، ثم يقول: أنا الملكُ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» رواه البخاريُّ ، وفي رواية أخرى لمسلم من حديث عبيد الله بن مِقْسَم، أَنه نَظَر إلى عبد الله بن عمر كيف يَحكي رسولَ الله ﷺ ؟ قال: يأخُذُ الله – عَز وجل– سماواتِهِ وأَرَضيهِ بيَديه، ويقول: أنا الله – ويَقْبِضُ أصَابعه ويَبْسطُها – ويقول: أنا الملكُ، حتى نظرتُ إلى المنبر يَتَحرَّكُ من أسْفَلِ شيءٍ منه، حتى إني أقولُ: أَساقِطٌ هو برسول الله ﷺ ؟ متفق عليه(١). فنرى في هذا المشهد كيف كان وقوفه ﷺ وقوفا شديدا مهيبا ، حتى استشعر الصحابة رصوان الله عليهم بأن المنبر سيسقط برسول الله من شدة وطأة قدميه على المنبر ومن قوة وقعه عليه .

وهو ﷺ محافظ على هذه السنة – سنة اعتلاء المنبر في الملمات – حتى وهو في مرض وفاته قد أرهقه المرض وأجهده الإعياء ولكنه تحامل على نفسه حتى وصل إلى المنبر وجلس عليه وذكرهم بما ينبغي في حق الأنصار، فعن عبد الله بن عباس ﵄ قال: «خرج رسولُ الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عَاصباً رأسَه بخِرْقَة، فَقَعَدَ على المنبر، فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: إنَّه ليس من الناس أحد أمَنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قُحافة، ولو كنتُ مُتَّخِذاً من الناس خليلاً لاتَّخَذتُ أَبا بكر خليلاً، ولكن

(١) المصدر السابق – ج٢ ص٣٣٩ .

خَلَّة الإسلام أفضلُ، سُدُّوا عني كلَّ خوخة في هذا المسجد، غيرَ خوخة أبي بكر» رواه البخاري(١).

فالنبي ﷺ قد جعل المنبر لكل نازلة ولكل طارئ فصعوده على المنبر ينبئ أصحابه ويشعرهم بأن الأمر مهمٌّ لا يحتمل التأجيل ، وزمن الصعود والوقوف على المنبر هو زمن كاف لتحفيز الأذهان ولشحذ العقول لتتلقى تلك الأوامر الهامة التي ليست كغيرها وإنما لأهميتها احتل النبي لها مكانا خاصا وتبوأ لها منزلا فريدا ارتبط في ذهن أصحابه بملمات الأمور، فعن عمرو بن أخطب الأَنصاري ﷺ قال: «صَلَّى رسولُ الله ﷺ يوماً الفجرَ، وصَعِدَ على المنبر، فخطبنا حتى حَضَرت الظهرُ، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس، فأخبرَنا بما كان، وبما هو كائن إلى يوم القيامة، قال: فأعلمُنا أحفظُنا» أخرجه مسلم(٢).

وعن مالك بن أنس – رحمه الله– بلغه «أنَّ رسولَ الله ﷺ تُوفِّيَ يوم الاثنين، ودُفنَ يوم الثلاثاء، وصلَّى الناس عليه أفذاذاً، لا يُؤمُّهم أحد، فقال ناس: يُدْفَن عند المنبر، وقال آخرون: بالبقيع، فجاء أبو بكر، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ما دُفِن نبيٌّ قَطُّ إلا في مكانه الذي تُوفِّيَ فيه، فَحُفِر له فيه، فلما أرادوا غَسلَه أرادوا نزع قميصه، فسمعوا صوتاً يقول: لا تنْزِعوا القميص فلم يُنْزَعِ القميصُ، فَغُسِّل وهو عليه» . أخرجه الموطأ(٣).

لقد كان المنبر هو مكان رسول الله ﷺ الذي يراه فيه معظم أصحابه، بخلاف المقربين منه الذين رأوه في كل حالاته ، لذا لما تُوفي رسول الله ﷺ اقترح بعضهم أن يدفن في أشرف مكان وأعظم موضع ، ولم يروا

(١) المصدر السابق – ج٨ ص٥٨٩ .
(٢) المصدر السابق – ج١١ ص٣٢٥ .
(٣) المصدر السابق – ج١١ ص٨٠ .

مكانا خليقًا بأن يحوز هذا الجسد الشريف إلا المنبر، فاقترح بعض أصحابه أن يدفن عند المنبر، وهو لا شك أعظم دليل على منزلة المنبر عند أصحابه – رضوان الله عليهم أجمعين – حيث أرادوا أن يجعلوه المثوى الأخير لرسول الله ﷺ .

وعن أنس بن مالك ﷺ: «أَنَّهُ سَمِعَ خطبةَ عمر بن الخطاب الآخرَةَ، حين جلسَ على منبرِ رسول الله ﷺ، وذلك الغَدَ من يوم تُوفِّي رسولُ الله ﷺ، فَتَشهَّدَ، وأبو بكر صامتٌ لا يتكلَّمُ، ثم قال عمرُ: أما بعدُ، فإني قلتُ لكم أمسِ مَقَالَة، وإنها لم تكن كما قلتُ، وإني والله ما وَجدتُ المقالةَ التي قلتُ لكم في كتاب أنزله الله، ولا في عَهدٍ عَهِدَهُ إِليَّ رسولُ الله ﷺ، ولكني أرجو أن يعيشَ رسولُ الله ﷺ، حتى يَدْبُرَنا يُريدُ: أن يكونَ آخرَهُم – وإن يكن رسولُ الله ﷺ قد مات، فإن الله جعلَ بين أظْهُرِكم نوراً تَهْتَدونَ به، بِهِ هَدى الله محمداً ﷺ، فَاعتصِموا بِهِ تَهتَدُوا بما هَدَى الله به محمداً، وإن أبا بكرٍ صاحبُ رسول الله ﷺ، وثَانِيَ اثنَينِ، وإنه أَولَى الناسِ بأُمورِكم، فقوموا إليه فبايِعوهُ، وكانت طائفةٌ منهم قد بايَعوه قبل ذلك في سقيفةِ بني ساعدة، وكانت بيعةُ العامَّةِ عند المنبر»(١).

ومن الحديث السابق يظهر أن صورة المنبر قد علَقت بأذهان أصحابه فربطوا بين المنبر وملمات الأمور فعند موته ﷺ تناوب أبو بكر وعمر صعود المنبر لتهدئة الجموع التي أذهلها الخطب فلم تدر ما تفعل وإلى من تلجأ في موقف لم يمر مثله عليهم قط مثله ، وها هي الأنصار قد رأى بعضهم أنهم الأحق بالخلافة من غيرهم فهم أول من جعل للإسلام دولة يحتمي بها وحصن يركن إليه، وكل فرقة لا تتكلم حتى يصعد قائدها المنبر ليبين للناس حجته ، ذلك المكان الذي طالما تعلق بالحوادث الهامة في حياتهم .

(١) المصدر السابق – ج٤ ص١٠١ .

خاتمة البحث

وبعد جهد ، فقد خرج البحث في مقدمة وفصلين، كانت المقدمة بمثابة المدخل إلى التداولية وبيان صلتها الوثيقة بتراثنا البلاغي ، وكان الفصل الأول تمهيدا حول تعريف التداولية، فكان بمثابة الإطار النظري الذي أماط اللثام عن حقيقة التداولية وبيان ماهيتها وكيف ارتكزت في تحليل النصوص على السياق في المقام الأول قبل النظر إلى المحاور اللغوية (النحو والصرف – الدلالة) مع تعريف للتداولية عند النقاد الغربيين، وكان الفصل الثاني بمثابة الدراسة التطبيقية للدرس التداولي، وقد خرج في أربعة مطالب، والتي هي أساس البحث، حيث عرضت لبعض النصوص النبوية وظهر منها كيف كان السياق حاديًا للكشف عن حقيقتها ، رأينا ذلك في حديث النبي إلى غير المسلمين ، وحديثه مع الأطفال ، وحديثه إلى أزواجه ، والمنبر وكيف ربط النبي ﷺ بينه وبين عظائم الأمور . إن العناية بالسياق في دراسة النصوص ذات أثر بالغ في فهم حقيقة تلك النصوص وسبر أغوارها ، ولقد كان هذا معلومًا في تراثنا العربي قديما، لذا نرى كيف استعملت النصوص النبوية التي بين أيدينا في فهم نصوص أخرى في القرآن الكريم .

ثبت المصادر والمراجع

إبراهيم خليل دكتور

١- في اللسانيات ونحو النص – دار المسيرة –عمان – الأردن – ط ٣ – ٢٠١٥م .

ابن أبي الإصبع عبد العظيم بن الواحد بن ظافر العدواني، المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ) .

٢- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن .تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي .

ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (المتوفى: ٦٠٦هـ) .

٣- النهاية في غريب الحديث والأثر .الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي .

٤- جامع الأصول في أحاديث الرسول – تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط – التتمة تحقيق بشير عيون الناشر : مكتبة الحلواني – مطبعة الملاح – مكتبة دار البيان الطبعة : الأولى ١٩٧١م .

ابن الأثير نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين،(المتوفى: ٦٣٧هـ) وهو أخو السابق .

٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد .الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت .عام النشر: ١٤٢٠ هـ .

ابن عبد ربه أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ) .

٦- العقد الفريد .الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت .

ابن منظور محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري (المتوفى: ٧١١هـ) .

٧- لسان العرب .الناشر: دار صادر– بيروت.الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

أبو تمام أوس بن حبيب الطائي (المتوفى : ٢٣١هـ) .

٨- ديوان الحماسة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان –ط١.

الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين (المتوفى : ٣٥٦هـ) .

٩- الأغاني – دار صادر – بيروت – تحقيق: إحسان عباس – ط١ – بدون تاريخ .

البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ) .

١٠- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي .المحقق : عبد الرزاق المهدي .الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت .الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ .

الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان، (المتوفى: ٢٥٥هـ) .

١١- البيان والتبيين .الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت .عام النشر: ١٤٢٣ هـ .

جميل عبد المجيد دكتور

١٢- البلاغة والاتصال – دار غريب – القاهرة – ٢٠٠٢م .

حسن طبل دكتور .

١٣- علم المعاني في الموروث البلاغي – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة – بدون تاريخ .

الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) .

١٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت.الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

الشاطبي إبراهيم بن موسى (المتوفى : ٧٩٠هـ) .

١٥- الموافقات في أصول الشريعة – دار المعرفة – بيروت – لبنان – ط١ ١٩٩٤م .

شهاب النويري أحمد بن عبد الوهاب النويري (المتوفى : ٧٣٣هـ)

١٦- نهاية الأرب في فنون الأدب – دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة – ط١ – ١٤٢٣هـ

صلاح فضل دكتور .

١٧- بلاغة الخطاب وعلم النص – الناشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ط١ ١٩٩٢م .

القزويني محمد بن عبد الرحمن بن عمر (المتوفى: ٧٣٩هـ)

١٨- الإيضاح في علوم البلاغة – المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي الناشر: دار الجيل – بيروت – الطبعة: الثالثة .

كريم محمد صديق دكتور

١٩- حال المتكلم في الحديث النبوي – رؤية جديدة للدرس التداولي – دار الأمل – الإسكندرية – ط١ – ٢٠٢٢ م .

محمد بدري عبد الجليل دكتور .

٢٠- تصور المقام في البلاغة العربية – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ط١ – ٢٠٠٣ .

محمد محمد يونس دكتور

٢١- وصف اللغة العربية دلاليًا – الناشر جامعة الفاتح – ليبيا – ط١ – ١٩٩٣م .

محمود نحلة دكتور .

٢٢- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر – مكتبة الآداب – القاهرة – الطبعة الأولى ٢٠١١ .

مراجع مترجمة :

إلفي بولان

٢٣- المقاربة التداولية للأدب – ترجمة محمد تنفو – رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة – ط١ – ٢٠١٨ م .

ستيفن ليفنسون

٢٤- البراجماتية اللغوية – ترجمة د سعيد بحيري – مكتبة زهراء الشرق – القاهرة – ط١ ٢٠١٥م .

فيليب بلانشيه

٢٥- التداولية من أوستن إلى غوفمان – ترجمة صابر الحباشة – دار الحوار للنشر والتوزيع – سوريا – ط١ – ٢٠٠٧م .

مراجع أجنبية :

26- Crystal.D (1994) Dictionary of linguistics – Black well- Britain.

27-Thomas j. (1996) Meaning in Interaction An Introduction

to pragmatics . Longman London and New York- .

28-lyons, J. (1996) : linguistic Semantics. An Introduction.

Cambridge University Press.

مقالات :

٢٩- وحيد حامد عبد الرشيد – مقالة بعنوان الاتصال غير اللفظي – www.almualem.net

٣٠- من مال من المنافقين من الأوس والخزرج إلى اليهود وبعض أمور دارت بين الرسول وبينهم www.islamweb.net//:

References :

'iibrahim khalil duktur

1- fi allisaniaat wanahw alnasi - dar almasirat -eaman - al'urdunu - t 3 -2015m .

abn 'abi al'iisbie eabd aleazim bin alwahid bin zafir aleudwani, almisrii (almutawafaa: 654hi) .

2- tahrir altahbir fi sinaeat alshier walnathr wabayan 'iiejaz alquran .taqdim watahqiqi: alduktur hifni muhamad sharaf alnaashir: aljumhuriat alearabiat almutahidat - almajlis al'aelaa lilshuyuwn al'iislamiat - lajnat 'iihya' alturath al'iislamii .

abn al'uthir majd aldiyn 'abu alsaeadat almubarak bin muhamad bin muhamad bin eabd alkarim alshaybanii aljazrii (almutawafaa: 606hi) .

3- alnihayat fi gharayb alhadith wal'athar .alnaashir: almaktabat aleilmiat - bayrut, 1399h - 1979m tahqiqi: tahir 'ahmad alzaawaa - mahmud muhamad altanahi .

4- jamie al'usul fi 'ahadith alrasul - tahqiq : eabd alqadir al'arnawuwt - altatimat tahqiq bashir euyun alnaashir : maktabat alhulwanii - matbaeat almalaah - maktabat dar albayan altabeat : al'uwlaa 1971m .

abn al'uthir nasr allh bin muhamad bin muhamad bin eabd alkarim alshiybani, aljazari, 'abu alfatha, dia' aldiyn,(almutawafaa: 637hi) wahu 'akhu alsaabiq .

5- almathal alsaayir fi 'adab alkatib walshaaeir .almuhaqaqa: muhamad muhi aldiyn eabd alhamid .alnaashir: almaktabat aleasriat liltibaeat walnashr - bayrut .eam alnashr:1420 ha .

abn eabd rabih 'abu eumra, shihab aldiyn 'ahmad bin muhamad bin eabd rabih al'andalusi (almutawafaa: 328hi) .

6- aleaqad alfarid .alnaashir: dar alkutub aleilmiat - bayrut .

abn manzur muhamad bin makram bin ealaa, 'abu alfadali, jamal aldiyn al'ansarii (almutawafaa: 711hi) .

7- lisan alearab .alnaashir: dar sadir - bayrut .altabeati: althaalithat - 1414 hi .
'abu tamaam 'uws bn habib altaayiy (almutawafaa : 231h) .
8- diwan alhamasat - dar alkutub aleilmiat - bayrut - lubnan -ta1.
al'asfahani 'abu alfaraj ealiin bn alhusayn (almutawafaa : 356h) .
9- al'aghani - dar sadir - bayrut - tahqiqu: 'iihsan eabaas - ta1 - bidun tarikh .
albaghawiu 'abu muhamad alhusayn bin maseud bin muhamad bin alfaraa' alshaafieii (almutawafaa : 510hi) .
10- maealim altanzil fi tafsir alquran = tafsir albaghawi .almuhaqiq : eabd alrazaaq almahdi .alnaashir : dar 'iihya' alturath alearabii -bayrut .altabeat : al'uwlaa , 1420 hu .
aljahiz eamriw bn bahr bn mahbub 'abu euthman, (almutawafaa: 255hi) .
11- albayan waltabyin .alnaashir: dar wamaktabat alhilali, bayrut .eam alnashr: 1423 ha .
jamil eabd almajid duktur
12- albalaghat waliatisal - dar gharib - alqahirat - 2002m .
hasan tabl duktur .
13- eilm almaeani fi almawruth albalaghii - kuliyat dar aleulum - jamieat alqahirat - bidun tarikh .
alzamakhshiri 'abu alqasim mahmud bin eamriw bin 'ahmada, jar allh (almutawafaa: 538hi) .
14- alkashaaf ean haqayiq ghawamid altanzilu. alnaashir: dar alkitaab alearabii - bayrutu.alitabeatu: althaalithat - 1407 hi .
alshaatibiu 'iibrahim bn musaa (almutawafaa : 790hi) .
15- almuafaqat fi 'usul alsharieat - dar almaerifat - bayrut - lubnan - tu1 1994m

shihab alnuwyri 'ahmad bin eabd alwahaab alnuwayri (almutawafaa : 733h)
16- nihayat al'arb fi funun al'adab - dar alkutub walwathayiq alqawmiat - alqahirat - ta1 - 1423h
salah fadl duktur .
17- balaghat alkhitab waeilm alnasi - alnaashir almajlis alwataniu lilthaqafat walfunun waladab - alkuayt ta1 1992m .
alqazwini muhamad bin eabd alrahman bn eumar (almutawafaa: 739hi)
18- al'iidah fi eulum albalaghat - almuhaqaqi: muhamad eabd almuneim khafaji alnaashir: dar aljil - bayrut - altabeatu: althaalitha .
karim muhamad sidiyq duktur
19- hal almutakalim fi alhadith alnabawii - ruyat jadidat lildars altadawulii - dar al'amal - al'iiskandariat - ta1 - 2022 m .
muhamad badri eabd aljalil duktur .
20- tasawur almaqam fi albalaghat alearabiat - dar almaerifat aljamieiat - al'iiskandariat - ta1 - 2003 .
muhamad muhamad yunis duktur
21- wasf allughat alearabiat dlalyan - alnaashir jamieat alfatih - libya - ta1 - 1993m .
mahmud nahlat duktur .
22- afaq jadidat fi albahth allughawii almueasir - maktabat aladab - alqahirat - altabeat al'uwlaa 2011 .
marajie mutarjamat :
'iilfi bulan
23- almuqarabat altadawuliat lil'adab - tarjamat muhamad tanfu - ruyat lilnashr waltawzie - alqahirat - ta1 - 2018 m .
stifin lifinsun
24- albarajimatiat allughawiat - tarjamat d saeid buhayriun - maktabat zahra' alsharq - alqahirat - tu1 2015m .

filib blanshih
25- altadawuliat min 'uwstin 'iilaa ghufman - tarjamat sabir alhabaashat - dar alhiwar lilnashr waltawzie - suria - ta1 - 2007m .
marajie 'ajnabiat :
-26Crystal.D (1994) Dictionary of linguistics - Black well- Britain.
-27Thomas j. (1996) Meaning in Interaction An Introduction
to pragmatics . Longman London and New York- .
-28lyons, J. (1996) : linguistic Semantics. An Introduction.
Cambridge University Press.
maqalat :
29- wahid hamid eabd alrashid - maqalat bieunwan aliatisal ghayr allafzii - www.almualem.net
30- min mal min almunafiqin min al'aws walkhazraj 'iilaa alyahud wabaed 'umur darat bayn alrasul wabaynahum
://www.islamweb.net